الفصـــل التاســـع

====

مظاهـــر الحضـارة فـى بـلاد العفـــر

====

المحتويـــات :

١ – نظام القيادة والسلطة والحكم.

٢ – أهم المدن التى تقع فى بلاد العفر.

١ - نظام القيادة والسلطة والحكم :

إن لدى العفر نظاما سياسيا تقليديا مهما قائما على الأفكار المشتركة التى توحد الشعب على مستوياته المتعددة وفى مناطقه المختلفة · إن الفكرة العامة التى يقوم عليها المجتمع العفرى توصف بـ عفر – لى Afar Le وهى نتيجة حتمية لسلوك المجتمع ككل · كما أن المبدأ السائد لنظام السياسة العفرية التقليدية هو: مادا (Madaa) (القانون العفرى) ، ودينتو Dinto «نظام سياسى للتعايش السلمى المشترك » ·ويقرر هيلاند أن النظام السياسى العفرى عبارة عن نسب وإقليم دون التزامن أو التماكن اللازمين [١] · ويشير (ريدو) إلى نوعين من القوانين العفرية التقليدية بوراعيلى ماداMadaa ولكنه يصف واحدا منهما فقط [٢] ·

فالقواعد القانونية مادا Madaa قد تطورت بالتطبيق العملى عند مناقشة بعض الحالات الخاصة ·

لذلك فهى قد تختلف من سلطنة إلى أخرى أو من قبيلة إلى أخرى · وهذا أيضا ينطبق على الـ دينتو Dinto وهى فكرة تساند المقبول والمعترف به من النظام الثقافى والسياسى [٣] · إن شرعية وقيمة النظام لا خلاف عليهما ، والقاعدة التقليدية التى ينظر إليها الشعب العفرى هى الصالح العام للقبيلة · أما هؤلاء الذين لا يتبعون القواعد الاجتماعية للقبيلة ، فيمكن أن

---

(١) هيلاند : مرجع سابق ، ١٩٨٠، ص ١١٨·

(٢) ريدو : مرجع سابق ، ١٩٧٣·

(٣) عبدالله عمر آدم : مرجع سابق ، ص ٤٢ ·

يحكم عليهم ببعض الغرامات بمعرفة مجلس القبيلة (مارو Maro) ٠

ويقول شيد يڤيل « إن أوضاع القيادة السياسية للعفر تختلف تبعا للانتماء القبلى والسياسى والمحلى» (١) ٠

أما المهمون جدا فيعرفون باسم أمويتا Amoyta كما فى أوسا وأماكن أخرى ، أو داردار Dardar « مثلما فى تاجوراه ورحيتا » ويسمونهم فى شمال العفر ريدانتو Redanto ، بينما فى الجنوب يعرفون باسم مومين Momin أو ماكاباناتو (٢) ٠

وفى إيجاز فإن النظام القبلى والنظام السياسى يختلفان فى المركزية ، حيث يعمل الأول من مركز رئيسى «محدد» مؤسس من شبكة أعمال مكونة من أشخاص ذى وضع اجتماعى واحد ، بينما يعمل الآخر بطريقة أكثر «حركة» بدون هيئات سلطوية محددة أو إدارات معينة لمساندة النظام (٣) ٠

فهناك فروق عديدة فى كيفية ممارسة الإثنين من حيث القدرة والسلطة، أما القواعد الرئيسية للنظامين مثل السلاطين، فلهم منطقة نفوذ

---

(١) شيد يڤيل : مصدر سابق ، عام ١٩٦٦ ، ص ١٨١ – ١٨٢ ٠

(٢) توضيح إن الاختلاف الأساسى بين أمويتا Amayuta وريدانتو Redanto وماكابانتو Makabantu من ناحية وبين داردار Dardar ومومين Momin من ناحية أخرى هو أن الحالة الأولى تنطبق على قبيلة واحدة فقط « حيث لعائلة واحدة حق وراثة السلطة» بينما فى الحالة الأخرى يحق لعائلتين من قبيلة واحدة تبادل السلطة ٠

(٣) المرجع السابق ، ص ٤٣ ٠

محددة فى تقسيم جغرافى ثابت ، وتعتمد دخولهم الاقتصادية إما على الضرائب أو على زراعة الأرض ٠

وعلى العكس من ذلك يتعايش الـ ماكابان Makaban بطريقة بسيطة ، فمنطقة نفوذهم تعتمد على العلاقة الطيبة بين العشائر والعائلات والأقارب الذين يرون بعضهم باستمرار ، ويتقاسمون نفس الاهتمامات الاقتصادية والسياسية ٠ فى نوع من التعاون التلقائى ضد القبائل الأخرى ٠ وللماكابان سلطات قبلية مهمة (١).

القيادة المركزية / أمويتا / داردار Amayata - Dardar :

تمثل هاتين القيادتين أعلى المستويات بين العفر (٢) ٠فبينما فى الحالة الأولى يحق للإبن أن يتولى السلطنة ، فإن السلطنة فى الثانية تكون متبادلة بين السلالات العائلية المختلفة ٠ فعلى سبيل المثال ، يتم اختيار داردار Dar-dar تاجوراه بالتبادل بين أفراد عائلتين من قبيلى أد الى : البورهانتو والدينيتى ٠ عند وفاة داردار Dardar ، فإن الشخص البانويتا Banoyta (نائب الداردار) يصبح داردارا ويصبح أكبر أبنائه « نائب الداردارا بانيوتا » (٣) .

---

(١) نفس المرجع السابق ، ص ٤٣ ٠

(٢) كلمة « أمويتا » Amoyta تعنى « رأس أو لورد » كلمة « داردار Dardar » تعنى محدد أو « معم » وهاتان القيادتان متماثلتان فى الكيان ، ولكنهما مختلفتان من حيث الإجراءات ٠

(٣) المرجع السابق ، ص ٤٤ ٠

والقوة الثالثة فى السلطة فى نسب الداردار، بعد البانويتا ، هى الـ مجليس Maglis وهو مجلس مكون من ممثلين قبليين أرستقراطيين (أوكال Okal) (١) .

إن لقب داردار يستعمل فقط فى سلطنتى تاجوره ورحيتا ، بينما يستعمل لقب أمويتا لأى سلطان من العفريين . وسوف نمعن النظر فى سلطنة أوسا لتحديد حالة السلطات المركزية والثابتة .

أمويتا أوسا :

كما أوضحنا سابقا تمتد جذور سلطنة أوسا فى ولاية عدل ، فقد ظهرت السلطنة بوصفها أعظم شكل للحكم فى المنطقة بعد أفول سلطنة عدل سنة ١٥٧٧م. فقد كان أول سلطان أوسا عفرى هو محمد « كدافو » . وكان آخرهم هو السلطان الحالى على مرح حنفرى .

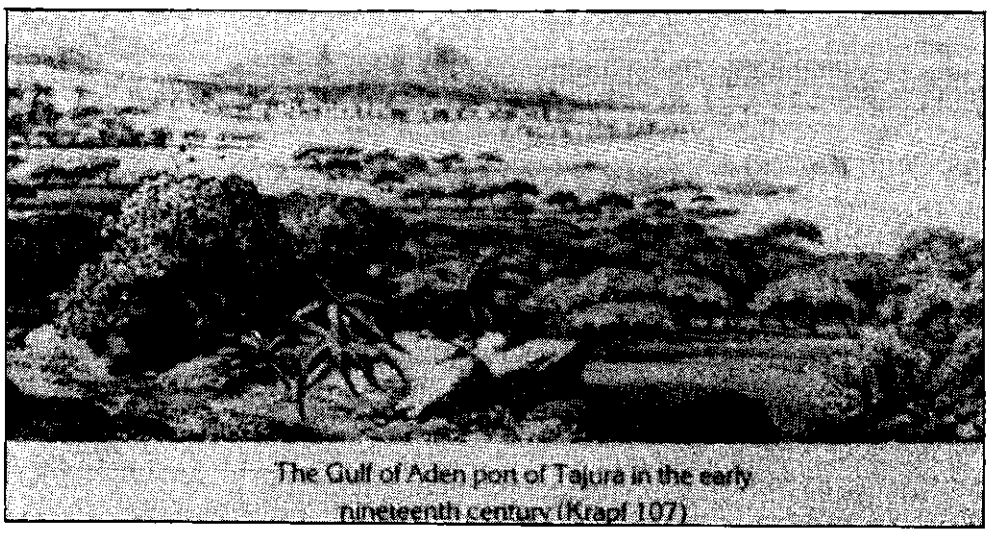

The Gulf of Aden port of Tajura in the early nineteenth century (Krapf 107)

تاجورا فى العصور الوسطى

(١) طومسون أودلف : عام ١٩٦٨.

وقد تم تسجيل وثيقة تتويج السلطان على مرح ووقع عليها مجموعة من أبرز القبليين والقادة الدينيين وأفراد قبيلة ايدا حس (القبيلة الحاكمة فى سلطنة أوسا)

وثيقة التتويج كما يلى :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، حقا ، إن هؤلاء الذين يأخذون على أنفسهم عهدا صادقا ليفعلوا هذا مؤمنين بالله ، فإن يد الله فوق أيديهم ·· مولانا العزيز المؤمن بالله ، السلطان على مرح · نحن شعب أوسا المتعلم دينيا ، الموقعين أدناه ، قد اخترنا جلالتكم قائدا وسلطانا لهذا البلد، أوسا ، للحكم طبقا للشريعة الإسلامية ، ولحماية مصالح الشعب والوطن · نحن مخلصون لله ولكم ·· تحت قيادتكم نضحى بحياتنا وثرواتنا لحماية ديننا وبلدنا ، ولن ينتهك أى منا قسمه · والله الشاهد علينا ، وهو أعظم الشاهدين » ولا حول ولا قوة إلا بالله (١).

إن السلطان هو قمة القوة المركزية لأوسا· وهو ليس فقط قائدا تقليديا للعفر ، بل هو أبوهم الروحى· وعلى مر الزمن ، كان أمويتا Amoyta قوة مطلقة للحكم ، حيث القيادة فريدة والقرار نهائى (٢) · وعلى مر التاريخ على أى حال، لم يكن الـ أمويتا طاغيا أو مستبدا · لقد كان يحكم بمجموعة من المستشارين غير محدودة العدد ، ولم يكن اختيارهم يتم بطريقة ثابتة تعتمد

---

(١) أحمد على – ميرا حـ ٢ ، ص ٣ ·

(٢) ثيذيجر : مرجع سابق ، ١٩٥٩ ، ص ٢٧ – ٢٨ ·

على الانتخاب أو التعيين· وكانت هذه المجموعة تشمل عددا من أقربائه ، ومن كبار السن وبعض الشيوخ والقادة الدينيين (١) ·

وقد لعب الشيوخ – اعتمادا على سلطتهم الدينية والعلمية وكبر سنهم، وباعتبارهم متخصصين فى القوانين العرفية – دورا مهما فى السيطرة على الشعب · وقد اعطت الديانة لحكم السلطان القوة والشرعية وجعلته المعلم الروحى للشعب · ويعمل هؤلاء الرجال بوصفهم ممثلين للأمويتا Amoyta· وهم يحكمون فى القضايا التى يعرضها الرؤساء · ومن ضمن أعمالهم أن يبلغوا الـ أمويتا عن القضايا التى سوف ينظرونها · وهم يصحبون الـ أمويتا Amoyta ، أينما ذهب · وهم المؤتمنون على الأسرار الملكية ، إلى جانب الحاشية الشخصية الـ أمويتا Amoyta ·

القيادة غير المركزية : « مومين ماكابانتو Momin Makabanto » إن أحسن مثل للقيادة غير المركزية والمتحركة للسلطة العفرية التقليدية هى الرئاسة فى أواسط وادى أواشى · وهناك اختلاف مهم فى القيادة غير المركزية بين الـ مومين والـ ماكابانتو (٢) تختص بمنطقة با أدو العفرية ، حيث يتوارث الابن الأكبر لعائلة الشيخ يوسوفتو هذا المنصب ·

ويمتلك الـ مومين Momin لوحة لأحد الأسلاف تسمى أيرين – إنايتا Ayrin - Imayta ماكابانتو Makabantu وهى اختصار لـ « ماكو

---

(١) عبدالله عمر آدم : مرجع سابق ، ص ٤٥ ·

(٢) الـ مومين والـ ماكابانتو : وهى مشتقة من الكلمة العربية «مؤمن» وتعنى «الوفى» أو «المكرى» ·

أبانتو Makko - Abantu [1] ويتولى الابن الأكبر تقليديا هذا المركز ، ما لم تشوه سمعته أو يتضح أنه لا تتوافر فيه الشروط · وهذا المركز يجب أن يتولاه من هو تام النمو جسما وعقلا فإن لم يتوافر هذا الشرط ، تولى هذا المركز رجل ناضج من القبيلة عند وفاة الـ ماكابانتو ·

وإذا لم يكن للماكابانتو ابن فإن ابن عمه أو شخص قريب من العائلة يرث هذا المركز · فانتقال مركز الـ ماكابانتو Makabantu من العائلة أمر نادر جدا (بل قد لا يحدث بالمرة) ، ولكن يمكن إنهاء ولاية صاحب المركز إذا اتضح للقبيلة سوء سلوكه ·

إن الماكابان يقومون عادة بدور الوسيط إذا ما نشأت المنازعات · أما دورهم فى الوساطة فيبقى من اختصاص مجلس القبيلة ·

ويقول كوسينز عن دور الماكابان : « إن الماكابانتو يمكنه أن يصدر الأوامر، ولكن ليس على الشعب بالضرورة إطاعته والخضوع له، ولكنهم يفعلون ذلك فقط إذا ناسبهم الأمر، أو كمظهر من مظاهر الاحترام · وله فى الواقع سلطة بسيطة فى فرض أوامره ، تعتمد على شخصيته وقوة عائلته وقبيلته التى يستند عليها [2]·

ويقول تريمينجهام : « إن سلطة الماكابانتو ضعيفة طالما أن القرارات المهمة يتخذها مجلس القبيلة المسمى مارو Maro · لذلك فإن الماكابان عادة

---

(١) ماكو – أبانتو : تعنى إجمالا ، صانع القرار أو معطى الأفكار ·

(٢) كوسينز : مرجع سابق ، ١٩٧٣ ، ص ١٨ ·

ليست لهم قوة أو سلطة سائدة بالمقارنة بالسلطان وليس لهم الإذن بالتصديق على العمليات الاقتصادية فى النظام التقليدى ، ولا تعكس مراكزهم ثرواتهم من الماشية ، وهم أيضا لا يملكون الإعتبار أو القوة التى تجذب الزبائن للتباحث فى مثل هذه الثروات (١) .

المنازعـــات والتقاضـــى :

يبدو أن النزاع فى المجتمع العفرى ينبعث من القضايا الخاصة بالتنظيم واستعمال العشب ومصادر المياه أو التبادل السليم للزيجات . فهذه الأمور قد تؤدى إلى جرائم القتل (بيئيلو Biilu) وإلى صراعات خطيرة بين القبائل ما لم تُحسم بالأخذ بالثأر (هانى hanee) فورا ، أو الصلح بين المتخاصمين (أما amaa) من خلال عملية تعويض بأسرع ما يمكن (٢) .

وتبعا لقانون يوريا عالى العرفى للعفر ، فإن الفكرة الأساسية للجريمة تتصل بثلاثة أعضاء بالجسم ، فإن ارتكاب الجرائم يتم إما بالأيدى أو باللسان أو بالأعضاء التناسلية (٣) .

إن معيار قياس الجرائم يتوقف إما على اعتراف المجرم بعمله السيء وتجاوبه إيجابيا (أبيتو abeitto) ، وهذا بدوره ينقسم إلى قسمين وفقا لكون الفعل عمدا مقصودا (جورهى gorhi) ، أو عفويا أو غير مقصود

---

(١) تريمينجهام : مرجع سابق ، ١٩٦٥ ، ص ١٧٥ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٤٩ .

(٣) ريدو : مرجع سابق ، ١٩٧٣ ، ص ٢ .

(جارهى garhi) ولكل من هذه الحالات مجموعة من الغرامات والعقوبات يحكم بها طبقا لقاعدة تقليدية · وفى بعض الحالات الأخرى ، يرفض المجرم الاعتراف بجريمته (١) ·

وعلى أى حال فإن المنهج الذى يتبعه العفر فى فض صراعاتهم يختلف من منطقة إلى أخرى ، تبعا لمكان وقوع الجريمة ، وهل للسلطان نفوذ فى ذلك المكان أم لا ؟· كما هل كانت الجريمة عن عمد أم بدون قصد؟ ·

المـــارو Maro :

جميع المسائل التى تنشئ الخلافات (مابلو Mablo) بين القبائل العفرية ، تجمع فى اجتماع مهم يسمى مارو Maro ، والمارو هو جمعية عامة من جميع الأطراف المعنية ، وأى شخص له قضية خطيرة يمكنه طلب عقد هذا الاجتماع · وفى أغلب الأحيان تتكون المحاكمة من الماكابان Makaban ، كبار السن، المختصمين ، والجمهور · وعندما تنعقد المحكمة يجلس الحاضرون فى شبه دائرة (مارو Maro) ، فيما عدا المتخاصمين الذين يجلسان فى الجهة المقابلة·

والـ مارو Maro هو منتدى عام للمناقشة الحرة ، حيث من حق جميع الأفراد أن يعبروا عن رأيهم، بصرف النظر عن ماهية القضية ·

وفى الـ مارو Maro جميع الأصوات متساوية ، مع أن كبار السن والـ

---

(١) جيليلواى Geleway : نفس المرجع السابق ، ص ٢ – ٣ ·

ماكابانية Makabanship لهم ميزة مهمة فى هذا الشأن [١] .

جميع الرجال لهم الحق فى المشاركة فى المناقشة ، واتخاذ القرار ، وعادة لا تشارك النساء ما لم تكن الحالة خاصة بامرأة . والسمة الواضحة فى المارو هى الانفتاح ، مع وجه اختلاف يتمثل فى الـ جارى Garay وهو « اجتماع سرى يقتصر على عدد من الناس » .

وعند انعقاد الاجتماع ، يعلن أكر الماس بانتوسنا أن الاجتماع قد فتح، ويطلب من المتخاصمين عرض قضيتهم على المجمع مع إعطاء الأولوية للمدعى (هايسيت Hayssit) . والمدافع عنه (إدى – هايسيت) له ضامن أو متحدث بالنيابة (أف – تالا Af - Taala) يمكنه أن يوضح بعض النقاط الغامضة أثناء المداولة [٢] .

ومن المهم أن يقدم المتخاصمان قضيتهم فى نفس الإطار بوضوح وبأسلوب سلمى ، وإلى جانب هذا يجب حضور الأطراف المعنية وقبولهم للقرار .

وفى هذا المجال تضرب الأمثال لتوضيح الجدال ، وغير مسموح لأحد بمقاطعة المتكلم . ويتم الجدل بـ جوؤها Guuma أى بوضوح . وبعد أن يقدم المتخاصمان قضيتهم ، تطلب شهادة الشهود (وادو Wadu) بعد

---

(١) نفس المرجع السابق ، ص ٥١ .

(٢) نفس المرجع السابق ، ١٩٩٣ ، ص ٥١ .

عرض القضية ، ويطلب من أحد الحاضرين تلخيص نقاط الاتهام بطريقة حيادية دون تحيز لأحد الأطراف · ويسمى هذا « جبا أو Gabbau » «ملخص » ، مما يعطى هيئة المحكمة ومن حضر متأخرا فرصة الاستماع إلى القضية مرة أخرى · وبعد انتهاء هذه العملية ، من حق الـ مارو أن يصدر حكمه بالعقوبة التى يراها (١) .

ويتم الوصول إلى اتفاقات من خلال إطار العمل ، والاقتراحات التى قدمت أثناء الاجتماع، وعادة ما تكون فى شكل تسوية تقبلها المجموعات المتخاصمة · وتشمل هذه التسوية التعويض بعدد من الحيوانات « غالبا أبقار أو صغار الماعز » و فى هذه الإيام تستعمل النقود فى بعض المناطق ·

بعد النطق بالحكم ، تستعمل قواعد الـ مادا لتنفيذ العقوبة · وهناك تدرج فى العقوبة تبعا للجريمة أو المخالفة · كما أن فرصة التصالح تكون ضئيلة فى حالات القتل، ولابد من الأخذ بالثأر (٢) .

ويقول ريدوار إن هناك طريقتين للحكم فى حالة القتل : فإذا كان القاتل من القبيلة « يمكنه أن يترك المنطقة فورا ، ويستغيث بقبائل أخرى لتتوسط فى مساعدته وفى إحلال السلام مع القبيلة المعنية · وإن لم يساعدوه فإنهم يتركون القبيلة التى منها المقتول تأخذ بالثأر من القاتل ، ولكنهم يستعدون للدفاع عن أنفسهم إذا تجاوزت هذه القبيلة قاعدة الأخذ بالثأر (٣) .

---

(١) ريدو : مرجع سابق ، ١٩٧٣ ، ص ٥ – ٦ ·

(٢) نفس المصدر السابق ، ١٩٩٣ ، ص ٥٢ ·

(٣) نفس المرجع السابق ، ١٩٧٣ ، ص ٧ ·

وفى الحالة السابقة ، وهى الحالة المعتادة ، فإن القبيلة تعترف بالقتل وتقر بدفع التعويض المناسب فى الحالة الأخيرة، لأن انتقام القبيلة قد يتجاوز الحدود ويضر بالجماعتين ٠

فالأخذ بالثأر من القاتل يتمثل فى قتل القاتل أو أحد أقاربه المقربين بأسرع ما يمكن فى النمو ، مما يهدد السلام والاستقرار فى المنطقة المعنية ٠

أهم المدن فى منطقة العفر :

وهى تقع ضمن الحدود الدولية للدول الثلاث إريتريا وإثيوبيا وجيبوتى وهى ست مدن معظم سكانها من العفريين :

١ - مدينة عصب (١) :

تقع هذه المدينة بدولة إريتريا ، وهى عاصمة إقليم دنكاليا ، وتعتبر الميناء الثانى الرئيسى لإريتريا ٠ وتقع على خط طول ٤٢ شرقا، وخط عرض ١٣ شمالا ، ولا يفصلها عن ساحل شبه الجزيرة العربية سوى ٣٨ميلا بحريا٠ وقد تأسست هذه المدينة فى بداية القرن الثامن عشر، وتطورت بوصول الإيطاليين الذين اتخذوها فى البداية ليس بوصفها ميناء لتموين سفنهم فى المنطقة فقط بل أيضا بوصفها نقطة انطلاق لاستعمارهم الإمبريالى فى المنطقة٠ فمن خلالها توغلوا إلى عموم إريتريا فى عام ١٨٦٩م ٠ والحركة التجارية فى عصب نشطة وتشكل منفذا أساسيا

(١) محمد عثمان أبو بكر : تاريخ إريتريا المعاصر أرضا وشعبا ، القاهرة ١٩٩٣٠

لتصدير وتوريد البضائع من وإلى إثيوبيا ، وتوجد بها أضخم مصفاة للنفط تمد إريتريا وإثيوبيا باحتياجاتهم النفطية · وفى عصب عدد من الملاحات يستخرج منها الملح ·

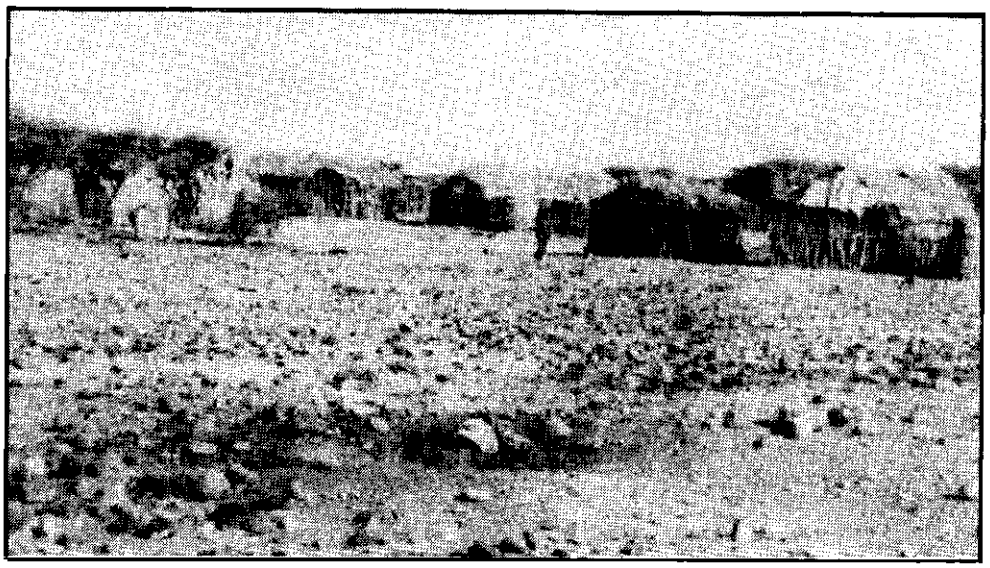

تجمع عفرى

صياد من العفر

قطف الدوم

سفينة تجارية صغيرة فى جيبوتى

٢ - **مدينـــة أسعيـتا** Assaita :

وهى مدينة حديثة العهد ، تتوسط المنطقة الزراعية غرب مصب نهر أواش، كما كانت منذ تأسيسها عاصمة لسلطنة أوسا بزعامة السلطان على مرح منذ ستة قرون ، وقد اختيرت هذه المنطقة حاليا لتكون عاصمة للحكومة الإقليمية العفرية فى إثيوبيا · وبدأت تزدهر وتشهد تطورا ملحوظا فى شتى مرافق الحياة العامة بعد أن أصبحت المقر الرئيسى لحكومة الإقليم العفرى، حيث بدأت تحظى بالاهتمام من قبل الحكومة المركزية فى أديس أبابا والحكومة الإقليمية على السواء ·

٣ - **مدينـــة باتـــى** :

وهى تقع على الحافة السفلى للهضبة الإثيوبية الشرقية ، وكانت مدينة تجارية تسوق فيها المنتجات التى يأتى بها تجار العفر من الأراضى المنخفضة عبر البحر، وأهم هذه المنتجات الملح، الحرير ، الذهب، العاج، وغيرها· والتى كانت يتم مقايضتها بالسلع المنتجة فى الهضبة الإثيوبية؛ مثل العسل والحبوب وبعض القطنيات (١) .

---

(١) عوض داود محمد : مرجع سابق ، ص ٧ ·

مدينـــة تاجـــورة :

تقع مدينة تاجورة على الخليج الذى يحمل اسمها وهى أقدم مدينة عفرية – بعد اندثار رحيتا ومعدر – ،وكانت هذه المدينة مزدهرة قبل وصول النفوذ التركى إلى منطقة القرن الإفريقى، وشاء لها أن تلعب دورا مهما فى المنطقة أثناء الاحتلال التركى · وهى مدينة تجارية كانت ولازالت تعتمد على هذا النشاط ، وكانت عاصمة لإحدى السلطنات العفرية العريقة والتى مازالت تحمل اسمها حتى الآن ،وتعتبر مدينة تاجوره اليوم المدينة الثانية من حيث السكان والتجارة فى جمهورية جيبوتى ·

الإمداد بالماء

٥ – مدينـــة أواش :

وهى تقع فى أعالى نهر أواش ، وتعتبر أحدث مدينة عفرية، وتعود أهميتها إلى الزراعة الواسعة التى تمارس حولها ،ولكونها تقع فى ملتقى الطرق التى تربط العاصمة الإثيوبية أديس أبابا بالبحر الأحمر عبر جيبوتى وعصب ٠

٦ – مدينـــة أبنة – « أو حيو » :

وهى مدينة عفرية قديمة وقّع فيها الفرنسيون أول معاهدة للصداقةوالتعاون مع السلاطين وشيوخ القبائل العفرية ،وهى أيضا كانت العاصمة الأولى لجمهوية جيبوتى قبل نقلها إلى مدينة جيبوتى بعد إنشائها فى عام ١٨٨٧م ٠ وهذه المدينة تعرضت للإهمال الكامل من جانب سلطات الاحتلال الفرنسى سابقا وهى تتمتع بموقع استراتيجى على مداخل خليج إجوراه ٠